الدور الاقتصادي والاجتماعي لـ إيران في سوريا

contact@deirezzor24.net www.deirezzor24.net
DeirEzzor24 DeirEzzor24 deirEzzor.24 D24net DeirEzzor 24

دراسات – ترجمات فريق ديرالزور24

الدور الاقتصادي والاجتماعي لــ إيران في سوريا

فاطمة مسجدي وبابك مينا في حوار مع جوزيف ظاهر

جوزيف ظاهر ، أستاذ في جامعة لوزان في سويسرا، وأيضاً أستاذ مشارك بدوام جزئي في معهد الجامعة الأوروبية في فلورانس، إيطاليا، حيث يعمل على مشروع زمن الحرب وزمن ما بعد النزاع في سورية. حصل ظاهر على دكتوراه في الدراسات الإنمائية من كلية الدراسات الشرقية والإفريقية التابعة لجامعة لندن في العام ٢٠١٥، ودكتوراه في العلوم السياسية من جامعة لوزان العام ٢٠١٨. هو مؤلّف كتاب "Syria After the Uprisings: The Political Economy of State Resilience" (سورية بعد الانتفاضات: الاقتصاد السياسي لقدرة الدولة على الصمود) (منشورات بلوتو وهاي ماركت، ٢٠١٩)، وكتاب "Hezbollah: The Political Economy of Lebanon's Party of God" (حزب اللَّه: الاقتصاد السياسي لحزب اللَّه اللبناني) (منشورات بلوتو، ٢٠١٦). كما أنه مؤسس مدوّنة سوريا الحرية للأبد.

حدّدت الجمهورية الإسلامية، باعتبارها الدولة الإسلامية المستقرّة الوحيدة في المنطقة، بعض المصالح الجيوسياسية التي لا تتوافق بالضرورة مع المصالح الوطنية الإيرانية. إنّ انخراط الجمهورية الإسلامية في سوريا، جيوسياسيا واقتصاديا واجتماعيا، مثيرٌ للاهتمام لأنّه يسمح لنا بدراستها من منظور الوطنية للحكومة الإسلامية.

تحدثنا حول كلّ هذا إلى جوزيف ضاهر مؤلف كتاب "سوريا بعد الانتفاضات" (٢٠١٩) و"الاقتصاد السياسي لحزب اللَّه اللبناني" ٢٠١٦

يُقال أنّ مستوى التبادل التجاري بين إيران وسوريا وصل إلى ٥ مليارات دولار قبل الحرب الأهلية السورية، هل يمكنك أن تفيوضّح لنا ما هي المصالح الاقتصادية الإيرانية سوريا قبل الأزمة؟

كان التبادل التجاري بين سوريا وإيران ضعيفا نسبيا وغير متحقّق إلى حدّ كبير قبل اندلاع الاحتجاجات عام ٢٠١١، وقدّر هذا التبادل التجاري بنحو ٣٠٠ مليون دولار في العام ٢٠١٠.

السبب الأول لتدخّل إيران في سوريا كان لأجل مصالحها الجيوسياسية، حيث كانت إيران حليفا رئيسيا لنظام الأسد وشخص بشار الأسد نفسه، وقد أعلنت إيران بوضوح أنّ الإطاحة بنظام الأسد هو خط أحمر.

إنّ دمشق مهمّة لدعم حزب اللّه، ممثّل إيران في لبنان ، الذي يلعب دورا حيويا في تحقيق الأمن الإقليمي ضدّ إسرائيل والولايات المتحدة، ونظام الأسد يحمي هذا الداعم، وبالنسبة لمسؤولي طهران فإنّهم لا يتخيّلون سوريا من دون الأسد، الذي يوفّر لهم فرصة قد لا تتحقّق لإيران مع غيره.

كما شعرتْ طهران أنّها ستفقد أحد حلفائها الرئيسيين في المنطقة إذا ما نجحت الانتفاضة، وأنّها ستخسر أحد مفاتيحها في المنطقة، وفي هذه الحال، فإنّ ذلك لن يعني هزيمة حليف مقرّب من طهران فحسب، بل ستعني أيضا نجاحا لمنافسي طهران الإقليميين، وخاصة حكومات وسلطات "الخليج العربي".

بشكل عام، تتمثّل استراتيجية إيران في تحقيق موقف تفاوضي أفضل مع القوى الكبرى من خلال "إثارة الشغب" واستخدام قدرتها وخبرتها على خلق مشاكل في مكان آخر، وتحاول إيران الردّ على التهديدات الأمريكية بقولها: "إذا ما حاولتِ استهدافنا، فسوف نرد عليكِ بالمثل"، سواء في العراق أو سوريا أو لبنان، وربما في اليمن، والآن، ربما حتى من خلال حماس، مع قيادتها الجديدة.

كان الدافع الأساسي للقوى الإمبريالية العالمية والإقليمية للتدخّل في سوريا هو الاعتبارات الجيوسياسية ، وليس الأهداف الاقتصادية، وكانت سوريا مركزًا جيوسياسيا للعديد من القوى التي تلعب أدوارا في المنطقة، ويمكن أن تؤدي الإطاحة بحكومتها إلى تغييرات كبيرة في توازن القوى، حيث تعتمد المواقف المحتملة للروس والإيرانيين أيضا على ضعف الإمبريالية الأمريكية في المنطقة، خاصة بعد هزيمتها في العراق، والأزمة الاقتصادية لعام ٢٠٠٨، والاحتجاجات التي حدثت فيها واخر عام ٢٠١٠ وأوائل عام ٢٠١١.

ولأجل ذلك، فإنّ هذه الأهداف الجيوسياسية الأولية لا تمنع الحكومة الإيرانية اليوم من السعي وراء المصالح الاقتصادية لها والاستثمار في بعض أجزاء سوريا، وخاصة أنّ التكاليف البشرية والمادية للحرب (تقدر بـ ٣٠ مليار دولار إلى ١٠٠ مليار دولار منذ عام ٢٠١١ وحتى الآن)، وهي تكاليف ثقيلة جدا على طهران.

في شباط/ فبراير ٢٠١٨ ، أعلن اللواء رحيم صفوي، كبير مستشاري آية اللّه خامنئي للشؤون العسكرية، أنّ إيران ستستردّ تكلفة الاستثمار في الحرب السورية باستخدام مواردها الطبيعية واستغلالها لاقتصاد سوريا لأجل هذا الأمر، ولكن هذا هو ما لم يتحقّق حتى اللحظة لإيران في سوريا، وتبدو روسيا أكثر استفادة منها حتى الآن.

ما هي الاتفاقيات التجارية التي تم التوصّل إليها بين البلدين في بداية الأزمة السورية؟ ما الذي تضمنته؟ كيف ستؤثر هذه الاتفاقات على الاقتصاد السوري؟

تم تقديم القرض الأول بقيمة مليار دولار في كانون الثاني/ يناير ٢٠١٣ بعد تدهور الاقتصاد السوري بنسبة ٥٠ في المائة مقارنة بواقع اقتصاد البلاد قبل الحرب، واستخدم نظام الأسد القرض لشراء المواد الغذائية المستوردة والاحتفاظ بحسابات سورية رسمية في الخارج، وتم توقيع اتفاقية بين المصرف التجاري السوري وبنك صادرات إيران، كلتا المؤسّستان الحكوميتان خاضعتان للعقوبات الأمريكية، وتم صرف القرض التالي وهو الأكبر بقيمة ٦٠٣ مليار دولار في آب/ أغسطس ٢٠١٣، وتم استخدام هذا المبلغ في الغالب لشراء النفط الخام ومنتجاته لأنّ النظام السوري فقد السيطرة على جميع حقول النفط تقريبًا في شرق البلاد، ووفقا لوكالة الطاقة الدولية، فإنه وفي عام ٢٠١٣ كان متوسط واردات النفط السوري من إيران ٣٠ ألف برميل يوميا.

في حزيران / يونيو ٢٠١٥ ، قدّمت جمهورية إيران الإسلامية تسهيلات ائتمانية بقيمة مليار دولار آخر للنظام السوري، تم إنفاقها على الإنفاق على الاستيراد ومواجهة الانخفاض الحادّ في قيمة العملة السورية. في كانون الثاني/ يناير ٢٠١٧، قدّمت جمهورية إيران الإسلامية خط ائتمان آخر بقيمة مليار دولار لنظام الأسد، وتم استخدام هذا القرض الجديد للواردات، وكان نصفها مخصّصًا لاحتياطيات النفط والنصف الآخر للواردات الصناعية والزراعية، والتي كان يتعيّن شراؤها جميعها من إيران من خلال الشركات الإيرانية.

بلغ إجمالي المساعدات الاقتصادية الإيرانية من خلال القروض الرئيسية الأربعة بين ٢٠١٣ و ٢٠١٧ رسميًا حوالي ٦٠٧ مليار دولار، وسمحت تسهيلات الائتمان لدمشق بالاحتفاظ باحتياطياتها الرسمية وصار لديها رأس مال لاستيراد المنتجات والسلع، بما في ذلك النفط والمواد الصناعية والزراعية، إلا أنّه تجدر الإشارة إلى أنّ المساعدة الإيرانية تجاوزت هذا بكثير، وبما يفوق خطوط الائتمان، كتكلفة الأجهزة والذخيرة، أو رواتب المليشيات الموالية للنظام، أو صندوق الطوارئ أو الاحتياطي الذي منع في السابق الليرة السورية من السقوط.

بالإضافة إلى ذلك ، كان نقل النفط الإيراني إلى الأسد وحده من العام ٢٠١٣ إلى ٢٠١٨ بقيمة ٣٠١٠ مليار دولار، وفي حزيران/ يونيو ٢٠١٩، عادت صادرات النفط الإيرانية إلى سوريا كما كانت عليه بين الأعوام ٢٠١٣ إلى العام ٢٠١٨، وذلك بعد أن توقفت لمدة ستة أشهر بسبب العقوبات الأمريكية على مصدّرين النفط.

اللواء رحيم صفوي

كيف أثرت المساعدات/ التدخّل الاقتصادي الإيراني في سوريا على المجتمع؟ وبأي شكّل أثرت على الثورة السورية؟

إنّ مقاربة نهج إيران الجغرافي في الاستثمار المالي يُظهر أنّها ترى في وجودها الأمني وحضورها في سوريا كنوع من الاستراتيجية من الناحية الاقتصادية. في شرق سوريا وعلى امتداد نهر الفرات، توصّلت إيران إلى اتفاقات مع بعض الزعماء القبليين المحليين، مثل نواف البشير من قبيلة البقارة، لتأمين مصالحها.

وتمكنت الميليشيات المرتبطة بإيران في هذه المناطق – سواء كانت أجنبية أو سورية أو أصلية/ محلية – من تجنيد الآلاف من الشباب من أهالي المنطقة في صفوفها، وبالتالي أقامت روابط مهمة بين الحرس الثوري والمجتمعات المحلية، حيث تحاول إيران اكتساب الشرعية من خلال التقرّب من السكان المحلّيين ومن خلال الأنشطة الإنسانية والخيرية والمدنية، وهذه الفعاليات والأنشطة تنفّذ بشكل رئيسي من قبل المركز الثقافي الإيراني ومنظمة جهاد البناء.

دمشق حاسمة في دعم حزب اللّه، ممثل إيران في لبنان، الذي يلعب دورا رئيسيا في تحقيق الأمن الإقليمي مقابل إسرائيل والولايات المتحدة، بالإضافة إلى ذلك، قامت إيران بزيادة نفوذها عن طريق دعم مشاريع "سبل العيش" لدعم المجتمع المحلّي، فعلى سبيل المثال، قدّمت كميات كبيرة من الأعلاف مخفّضة التكلفة لدعم جزء مهمّ من الثروة الحيوانية، كما أنشأت إيران المراكز الطبية والمدارس وأعادت تأهيلها، وسعت إلى إرضاء السكان المحلّيين من خلال توفير الكهرباء.

في جنوب وشرق حلب، أنشأ الحرس الثوري ميليشيات مؤثّرة ذات نفوذ، حيث تساعد إيران حلفائها المحليين على الاستثمار في الأعمال التجارية المحلّية مثل النقل وتجارة النفط، وتحاول إيران من خلال ذلك إنشاء شبكات محلية مرتبطة به من خلال ذلك، وبشكل أوضح، تسعى إيران إلى استغلال عدم قدرة النظام السوري على التجنيد، بينما تعمل إيران على التعاون مع كبار المسؤولين المحليين وجلب الفاعلين المحليين والأعضاء البارزين في شبكاته المتنوعة.

نفوذ إيران المتنامي في سوريا والمنطقة يقوده الحرس الثوري الإيراني، وهي قوة عسكرية سياسية تعمل بنوع من السرية، ويسيطر الحرس الثوري الإيراني على جزء كبير من الاقتصاد الوطني الإيراني وتتبدى مظاهره المسلّحة في العراق وسوريا ولبنان.

في الميدان العملي، قدمت الاستخبارات والقوى الأمنية في الجمهورية الإيرانية المساعدة والاستشارات للنظام السوري منذ بداية الانتفاضة، وقدّمت طهران مساعدات عسكرية حيوية للأسد وشكلت ميليشيات موالية للنظام على المستوى الوطني، ولعب القائد السابق لفيلق القدس، قاسم سليماني، دورا مباشرا في ظهور المليشيات المحلّية، المعروفة باسم قوات الدفاع الوطني، وهو مثال على إجراءات طهران على المستوى المحلي في دعم قوات نظام الأسد.

في الوقت ذاته، ازداد نفوذ إيران الثقافي والمذهبي والسياسي بشكل ملحوظ في أجزاء مختلفة من البلاد، خاصة في المناطق الساحلية وفي دمشق وضواحي حلب ودير الزور، وتضاعفت المنظمات التابعة لجمهورية إيران الإسلامية والتي تقدّم الأنشطة الطبية والتعليمية والاجتماعية، بالإضافة إلى ذلك، تم إنشاء الحوزات العلمية والزيارات الدينية المقدّسة.

إنّ إنشاء هذه المنظمات له أهداف مختلفة، بما في ذلك إنشاء قاعدة شعبية لإيران وجذب المؤيدين، كما أقامت إيران فروعا لبعض شركاتها ومؤسّساتها في مناطق نائية ومحرومة من البلاد، مثل ضواحي حلب ودير الزور.

منذ عام ٢٠١٢، تم تنظيم الشيعة السوريين أيضا، بتدخل إيران وحزب اللّه والشيعة العراقيين، فعلى سبيل المثال، يمكننا أن نذكر جمعية الشباب في حمص ودمشق، وتأسيس سلطة دينية محلية، تدعى المجلس الإسلامي الجعفري الأعلى في سورية، وذلك في العام ٢٠١٢ بإلهام من المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى في لبنان.

المجلس الجعفري الأعلى للإسلام في سوريا، يترأسه السيد محمد علي المسكي، وله موقف سياسي وسلوك أقرب إلى الخميني والخمينية، كما أنّه مقرّب من الميليشيات الموالية لإيران، ولوحظ تأثير إيران على المجتمع السوري في شوارع دمشق حتى قبل تشكيل الميليشيات الشيعية المتطرفة المدعومة من إيران.

محمد علي المسكي

ويتجلى هذا التأثير بشكل خاص في أحداث مثل عاشوراء أو الاحتفالات الهامة بالثورة الإسلامية الإيرانية التي تقيمها وتحميها المؤسسات الحكومية الإيرانية أو المنظمات الثقافية والدينية المدعومة من إيران في مدن مثل حلب ودمشق. وأظهرت هذه الأحداث جميعها التأثير السياسي والثقافي المتزايد لإيران.

بشكل عام، تمكنت إيران من الاستفادة من الانتفاضة السورية لتوسيع شبكتها الإقليمية من الميليشيات المسلّحة كالتالي:

- عصائب أهل الحق، الممثل الشيعي لإيران في العراق والذي أرسل مقاتلين إلى سوريا.

- كتائب سيد الشهداء، ميليشيا مدعومة من إيران مقرها في العراق، والتي ذكرت في البداية أن هدفها الرئيسي هو الدفاع عن جميع الأضرحة الشيعية في العالم، ولكن بعد ذلك حصرت أنشطتها في العراق وسوريا.

- حركة حزب اللَّه النجباء، والتي أعلنت عن إنشاء كتيبة عمار بن ياسر، وهي ميليشيا شيعية عراقية سميت باسم ضريح عمار بن ياسر في الرقة، المدينة التي دمرها الجهاديون.
- منظمة بدر، التي كانت في الأصل الفرع العسكري للمجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق، وأعيد تسميتها فيما بعد إلى المجلس الإسلامي الأعلى في العراق، وكانت هذه المنظمة الطريق الرئيسية للحرس الثوري لإقامة تمثيلاتها في العراق.

كانت الحكومة السورية بحاجة إلى مساعدة إيران وروسيا من أجل البقاء على جميع المستويات السياسية والعسكرية والاقتصادية. حاول هؤلاء الفاعلون الدفاع عن مصالحهم (الجيوسياسية في الغالب) باستثمارات ضخمة، لكن في النهاية، أدى انخراطهم العميق في الأزمة إلى إدراكهم بمرور الوقت أنهم يواجهون مخاطر أكثر مما كانوا يعتقدون في البداية، وتسببت مساعدة هؤلاء الفاعلين في نقل خبرتهم في القمع إلى نظام الأسد وتهيئة الظروف لقمع المعارضة الشعبية المسلّحة.

من هذا المنظور، لعبت إيران ودول أجنبية أخرى دورا مدمرا في الأزمة السورية.

وبحسب الحكومة الإيرانية، كانت سوريا في طليعة الدفاع ضد الجهود المشتركة للأعداء الإقليميين والدوليين لتغيير النظام في سوريا كخطوة أولى وعزل وإسقاط جمهورية إيران الإسلامية في الخطوة التالية.

للإطلاع على رابط المادة الأصلي، يرجى النقر على هذا الرابط.